مجلة دراسات وأبحاث

المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

Dirassat & Abhath

The Arabic Journal of Human and Social Sciences

ISSN: 1112-9751

تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي

" تغريبة جعفر الطيار" أنموذجا

د . موسى كراد

المركز الجامعي ميلة

تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي

" تغريبة جعفر الطيار" أنموذجا

د . موسى كراد

المركز الجامعي ميلة

الملخص:

تتناول هذه الدراسة تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي، حيث شكلت هذه الظاهرة ميزة غلبت على معظم قصائده المنتجة مع تنوع في التجربة والتوظيف ، كما كانت دافعا نفسيا فريدا وسم الإنتاج الشعري الجزائري الذي كان زاخرا بالتجارب الذوقية والروحية السامية ومتميزا بالطابع الجزائري الخاص، فقد كان للوقائع التاريخية والسياسية في التسعينات أثر بارز في تشكيل هذه الظاهرة.

ومن خلال الدراسة تبين أن خطابه الاغترابي أخذ منحى تصاعديا؛ فرغم سواد واقعه "وطنه" وجدناه حالما متمنيا السلام والاخضرار لهذا الوطن، فهو الحلاج الهائم والضائع في ملكوت الوطن حيث لا نجد في قلبه إلا الوطن وحب الوطن.

الكلمات المفاتيح: الحس الاغترابي، يوسف وغليسي، الشعر الجزائري الحديث.

Abstract

This study deals with the manifestations of the sense of alienation in the poetry of yousef wgleissi, where this phenomenon was an advantage over most of his poems produced with a variety of experience and employment, and was a unique psychological motivation and marking the production of Algerian poetry, which was Zakhra taste and spiritual experiences high and distinctive Algerian special, The historical and political realities of the 1990s have a significant impact on the formation of this phenomenon.

Key words: Alien sense, yousef wgliesi, modern Algerian poetry.

مقدمة :

((لا وطن لنا ولا منفى.... لا منفى ولا وطن.... لكن هناك شيئا واحداً لا يستطيع أحد حرماني منه، وهي القصيدة))[1]

تعد فترة التحولات (الثمانينات والتسعينات) في الحياة الساسية للجزائر _ بانعكاساتها الاجتماعية والثقافية الأدبية _ نقطة تحول هامة اكتسى فيها حالة من الحزن فرضها راهن ممزق ووضع مأساوي عاشته وعايشته الأمة العربية الإسلامية عامة والجزائرية خاصة، حيث راح الشاعر الجزائري وهو في أوج موته وانكساره يرقب تارة ويجاري أخرى عالما يخطو بخطى ثابتة نحو التحديث والتجديد و " لما كان الإبداع فعلا مضاد للموت و الفناء كانت الكتابة مشروعا مستقبليا.. والإضافة والتجديد نوع من تحقيق الذات ... وتعبير عن وجهة نظر "[2].

هكذا اتجه الشاعر إلى (تفكيك اللغة الشعرية الموروثة وتشييد لغة جديدة تحمل صفات الوجود المتجدد"[3] إذ " لم يكن من بد من تلغيم النص، وتفجير بنيته المنخرقة لتأسيس بلاغة معاصـرة تستجيب لدواعي التغيير في واقع الإنسان "[4]

لقد أنشأت مجموعة من الشعراء الجزائريين لنفسها معجما خاصا، وشعرية تقدم المشهد الجديد، مشهد يجسد التزامهم بواقع والراهن المفروض بممارسة حرياتها التي استقتها من تجارب الشعر العالمية، والتي أفضت إلى " غموض النص من جهة، وانفتاح البناء النصي على متاهة الجيل من جهة أخرى "[5]، وقد وصف أحمد يوسف في كتابه " **يتم النص** " " هذا الجيل بجيل اليتم، الذي يفتقد إلى أب يستند إليه، و يلوذ به، فراح يتبنى فلسفة خاصة و لغة جريئة انفجارية تتوشح هالة من السواد، و تركب غوايات التجريب و التجديد، و ترسم واقع الشاعر بريشة الرفض والتجاوز "[6]

" لقد أدرك الشاعر المعاصر خطورة الكلمة في نقل التجارب و الأحاسيس بعدما دخل دائرة التجريب الشعري لما هو ممكن أو متاح أمامه من أدوات تعبيرية يلتقطها "[7] ، فراح يلون أشعاره من خلالها بألوان التعبير والصور وينسج بخياله فضاء رحبا من الحرية، حرية شخصية للذات الشاعرة وأخر ى للقارئ المتلقي، فهما " يلتقيان في رحلة محتجبة نحو حريتهما المشتركة خارج المواعيد الكسولة أو المحتملة"[8].

فكان معجمهم ولغتهم أكثر الألفاظ شيوعا وتداولا هو " لفظ الوطن ثم يأتي بعد ذلك لفظ الموت مشكلا معجما وجدانيا مأساويا يبنى على ألفاظ كلها توحي بالمأساة، الدم والجراح، الفجيعة الدموع، الهم الأوجاع، الخراب، الدمار، الجنازة، الحزن، الألم"[9] . فأحمد شنة مثلا في ديوانه " **من القصيدة إلى المسدس** " يبرز لنا حجم المعاناة من خلال الإهداء حيث قال : (إلى الذين رفضوا أن يغادروا الجزائر في عز المحنة وفضلوا أن يموتوا برصاصة غادرة في وطنهم...إلى المواطنين الصابرين تحت سنابك الفتنة و رهج الدمار وجبروت الإرهاب والقرصنة."[10]

ومما لوحظ في أثناء قراءة بعض دواوين الشعراء أن التعبير الدرامي ذو الحس الاغترابي ينعكس كثيرا في صورهم الفنية، " وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى رؤية الشاعر الجزائري المعاصر للواقع و مدى تمرده عليه "[11]. من ذلك قول الأزهر عطية:

كْيَــف أْشُدوا أَو أغني
و أنا أْ حيَـا غريبا
في متاهات الزمن
كْيَــف أْشُدوا أَو أغني
و أنا أْ حيَـا غريبا
أحمل الهم الذي لا يُحتملْ[12]

فالشاعر من خلال هذه القصيدة يلفظ آهات الألم والمعاناة والغربة والحيف والضياع في دهاليز المجهول.

1. مفهوم الاغتراب ودلالاته:

ليست ظاهرة الاغتراب حالة مرضية كما أنها لا ترتبط بمجتمع معين أو مرحبة تاريخية فهي ظاهرة ملازمة للوجود الإنساني في كل زمات و مكان، وهذا ما يفسر لنا اهتمام المجالات المعرفية كافة بهذه الظاهرة اهتماما جعل من مفهوم الاغتراب مفهوما غامضا يصعب تحديده تحديدنا دقيقا، إذ تضاربت الآراء و الأقوال فيه" [13] حتى باتت كلمة الاغتراب لذاتها تكاد تكون غامضة دون أن توصف. و بات على الباحث في هذا المجال أن يتحدث أذا ما أراد أن يحدد الاغتراب – عن مظاهر الاغتراب المتنوعة كالاغتراب الكوني، والاجتماعي، والسياسي، والنفسي ..... الخ ، لأن هذه الأشكال الاغترابية تتباين على الرغم من التقائها في بعض الجوانب، وقد اختلفت التحديدات الاصطلاحية لأشكال الاغتراب حسب اختلاف موقف المنظرين له، فقد عد "هيغل" الاغتراب عن البنية الاجتماعية ظاهرة سلبية لأنها تحدث شروخا داخل الذات المغتربة"[14] في حين ذهب فرويد إلى أن الاغتراب حالة ايجابية تعزز شعور الفرد باستقلاليته منطلقا من تجربته الشخصية عندما كان يعاني تغريبا من البنية الاجتماعية المحيطة به كونه يهوديا[15]

أما علماء الاجتماع فكان موقفهم محايدا تجاه هذه الظاهرة إذ تناولوها في أبحاثهم تناولا بعيدا عف التقييم[16]، وفضلا عما تقدم فقد تعددت منابع الاغتراب فبعضها يكون نتيجة عوامل خارجية مستقلة عن إرادة الفرد بينما يصدر الأخر عن محض الإرادة كالاختيار الذاتي[17]

للاغتراب معانٍ ودلالات عديدة، تعكس طبيعة النظر إليه، والرؤيا الفنية له، فتتبع اللفظ في المعاجم العربية يشير إلى أنَّه مشتق من الفعل غَرَبَ، يغربُ، بمعنى غاب واختفى وتوارى وتنحى وبَعَدَ عن وطنه إذ جاء لفظ الاغتراب في المعاجم العربية بمعنى الغربة عن الوطن، فقد أشار الفراهيدي إلى هذا المعنى بقوله: " الغربة: الاغتراب عن الوطن، وغرب فلان عنَّا أي تنحى وأغربته وغرَّبته، أي نحيته، الغربة النوى والبعد"[18].

ويؤكد هذا المعنى الجوهري، إذ يقول أن التغريب: النفي والإبعاد عن البلد مشيراً إلى الحديث النبوي الذي أمر بتغريب الزاني منه إذا لم يحصن[19].

وأشار ابن منظور إلى أن لفظ (الغرْب) بمعنى الذهاب والتخفي عن الناس، وترد الغربة والغرب بمعنى النوى والبعد، ويُقال غرَّب في الأرض إذا أمعن فيها، ورجل غريب ليس من القوم، والغريب الغامض من الكلام، وتبعه الزبيدي في تاجه[20].

إذن نجد أن لفظة الاغتراب تشير في أغلب معانيها إلى الغربة المكانية والابتعاد عن الوطن، إذ تشترك هذه الدلالة بجذر واحد هو (الانفصال عن) وبإرادة ذاتية أي حصول الانفصال برغبة الذاهب وإرادته،

أما في الاصطلاح فقد اعتبر معظم الدارسين أنّ ظاهرة الاغتراب إنسانية وُجدت في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية، وفي كل الثقافات ولكن بدرجات متفاوتة، ذلك أنَّ الاغتراب قد يعني الانفصال وعدم الانتماء، ويُعرّف أيضاً بأنَّه وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به، وبصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق [21].

لكن على الرغم مما كتب عن ظاهرة الاغتراب، فإنّ تداخل التخصصات أدى إلى تضارب الآراء، والاتجاهات والميول، فالمصطلح مازال يكتنفه بعض الغموض، وربما كان ذلك أمراً طبيعياً شأنه شأنَ غيره من المصطلحات المثيرة، ومع هذا التباين، وذلك الغموض، وتلك الاختلافات في الرؤى وأساليب المعالجة، فإن أغلب تلك الجهود التي قيلت، نجدها تلتف حول أشياء معينة بالذات وتدور حولها، وتشير أغلبها إلى دخول عناصر معينة في مفهوم الاغتراب مثل (الانعزال) و (الوحدة) و (الغربة) و (الانفصال) و (الانخلاع) و (التخلي) و (الانتقال) و (التجنب) و (الابتعاد) والانسلاخ عن المجتمع، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء، بل أيضاً انعدام الشعور بمغزى الحياة [22]. إذ أنَّ هذه الظاهرة تختلف من إنسان لآخر تبعاً لطبيعة تلك الشخصية، وحجم معاناته النفسية، فضلاً عن طبيعة علاقته بمن حوله، إذ يتميز كل إنسان بقدرة محددة ومعينة في توجهه لمعالجة المشاكل التي تواجهه والتي تختلف فيها درجات المعالجة واللامبالاة، إذ نلمس في هذا المصطلح تنافراً قائماً بين حال المرء، وما ينبغي أن يكون عليه[23].

وقد حددّ عدد من الباحثين المحدثين دلالات الاغتراب ومضامينه والمتمثلة في العجز والاستسلام، والهراء، وفقدان المعنى، والتحلل من القواعد العامة المتبعة، أي ضعف الالتزام بالأعراف الاجتماعية المنظمة للسلوك، وكذلك الغربة الثقافية من خلال الشعور بالانفصال عن القيم السائدة في المجتمع، والعزلة الاجتماعية التي تعني الشعور بالوحدة والانفصال، وقطع العلائق الاجتماعية، فضلاً عن الغربة الذاتية التي تمثل القضية الجوهرية، إذ أنها تشير من طرف آخر إلى أن الفرد لم يعد يملك زمام ذاته [24] . وقد يتداخل المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ليعطيا مفهوماً واحداً هو الابتعاد عن الناس بالجسم والفكر، فالاغتراب عاطفة قد تستولي على المرء ولاسيما الفنانين، الذين –ربما– يعيشون في قلق وضياع نتيجة شعورهم بالبعد عما يحلمون [25].

وقد شكّلت قضية الاغتراب أحد الروافد الهامة للفكر الإنساني، ومن مكونات الواقع الاجتماعي والنفسي والاقتصادي للفرد والمجتمع على السواء. وهي قضية وإشكالية لا يخلو منها أي عمل فني أو أدبي، يعبر عن الإنسان البدائي والمعاصر وإحساسه بالتمزق والضياع واللانتماء والقهر والاستلاب.

فلقد تعرض الإنسان – تاريخياً _ لحالات اغتصاب، وقهر، واعتداء، وتشويه، ومسَّت شخصيته الإنسانية، فبدت عليه مشاعر البؤس والشقاء والاغتراب، فضلاً عن العقد النفسية مما

يعني " أن مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للإنسان، حيث يفقد مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والاستمرارية" [26]. عبر كامل أطوار حياته.

فكيف تجلى اغتراب الشاعر الجزائري ممثلا في يوسف وغليسي في هذه الدراسة ؟ و ما أنماط اغترابه؟ والأهم في الأمر هل استسلم يوسف لاغترابه واغتراب وطنه أم هل قاوم ورفض..؟

2. تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي:

المطلع على مدونة " **تغريبة جعفر الطيار**" للشاعر يوسف وغليسي يلاحظ أن قصائد الديوان قد انطلقت من الغربة والموت والغياب، صهرها الشاعر في بوتقة الحكاية، والتغريبة عنده تتكسر عندها مفهوم الغربة و تتوسع لتصبح تغريبة للذات و الآخر.

وللتغريبة " مفهوم خاص وله دلالة محدودة توحي بنوع أدبي شعبي في الثقافة العربية الكلاسيكية، إن التغريبة جزء من (سيرة بني هلال) لذلك ارتبط في ذهننا اتصال التغريبة بالجماعة"[27]

التغريبة الوغليسية حكاية مدارها الأخبار عن معاناة، الواقعة تحت وطأة زمن الموت والفتنة، حشد للعذاب والضياع وفضاء للتنفس بالأوجاع، تداخلها نبرة نبوية تجعل من لغتها و كأنها لغة قداس يقام في حضرة " الأنبياء والشخصيات التراثية و التاريخية "، ويتجلى ذلك بشكل كبير خاصة في قصيدتي " تجليات نبي سقط من الموت سهوا " وتغريبة جعفر الطيار "، لقد أدرك الشاعر أن الخلاص الوحيد من الألم والعذاب والتيه مشروط بالشعر فسعى إلى إبادة غربته بالشعر"[28]، لأن " الشعر مثل الحلم"[29]، وقد تجلى اغتراب يوسف وغليسي في أنماط معينة جاءت كالأتي:

- ✓ **الاغتراب المكاني، اغتراب الوطن**

لقد مرت الجزائر بمرحلة سماها المؤرخون بالعشرية السوداء؛ والتي كانت سوداء حقا على حياة الجزائريين حيث أتت على الأخضر و اليابس، و فُقد الأمن والأمان والسلام والطمأنينة في الوطن، وفاغترب الانسان وشعر بالاسلاب والقلق والاضطراب واللانتماء..

كم هو صعب أن يشعر المرء أنه غير منتم ومغترب في وطن ليس وطنه.. لكن أن يغترب المرء وهو بين ظهراني أهله و وطنه فذلك أصعب .. وهذا ما يسمى بالاغتراب المكاني..و شاعرنا في هذه الدراسة عانى من اغتراب وطنه لأسباب كثيرة منها أنه يتألم لما حدث لهذا الوطن الغالي في نفس الشاعر يقول:

زمني في منأى عن كل الأزمان
ما أغربني في وطن لا يتشبه بالأوطان
فاليوم الواحد فيه مثل ألوف الأيام
و اذن
كم يلزمني من عمر في وطني
حتى أصبح انسان؟[30]

إنّ عيش الشاعر في دوامة الخوف والضياع جعلته يحس نفسه غريبا في وطنه، حتى إن اليوم في وطنه بألاف الأيام.. ليس هذا فحسب بل أصبح الشاعر في وطنه لا يحس بصفة الإنسانية؛ وهذا ما يشكل قمة الاغتراب المكاني و الوجودي.

لقد أصيب وطن الشاعر بالتشتت والضياع والتمزق و أصبح العيش فيه أمرا صعبا ومستحيلا، لذلك قرر يوسف وغليسي الهجرة، يقول يصف وطنه واغترابه فيه:

إني أتيت من بلاد النار
من وطن الحديد
شيعت أحلامي و أحبابي..صباي.
و كل ما ملك الفؤاد.. و جئت كالطير.
المهاجر أبتغي وطنا جديدا.[31]

إنّ الشاعر يبحث – كالطير المهاجر الذي يبحث عن وطن دافئ يعشش فيه .. – عن وطن جديد يستطيع فيه أن يحلم ويحب ويتذكر صباه.. لأن وطنه هذا كبله وقيده فأصبح كالسجين والمعذب بالنار.

إن هذا الوطن – القديم – وطن العشرية السوداء التي خيمت على الشعراء و جعلتهم يحسون بغربة هذا الوطن الذي لم يعد آمنا مطمئنا، لذلك بحثوا عن هجرة علهم يجدون هذا الوطن المفقود المغترب، لقد أصبح وطن يوسف وغليسي لا يستحق التعريف، بعد أن فقد هويته يقول :

كان لي وطن يوم كان أراغون يشدو
غناء فتنتصب الاغنيات عيونا ل إلزا
كان لي وطن يوم كان الحمام يحمل أسماء
أشواقي الكامنات، و كنت أنا
الحارث بن حلزة"...
كان لي وطن يوم كان و كنت و كنا، و كان
كثير يعشق عزة[32]

لقد كان للشاعر وطن لكنه لم يعد، فهذه المقطوعة ما هي إلا استذكار للزمن الجميل الذي كان يميز الشاعر ووطنه.

كان لي وطن يوم كانت سراديبه تستضيء
بنوري المقدس
وكنت أنا خالد بن سنان
فلماذا يضيعني اليوم قومي؟؟
لماذا يصادر نوري؟!
لماذا ؟؟.

هل أصبح هذا الوطن في خبر كان مع ما كان من ذاكرة في المخيلة العربية .. كان في الماضي ..وكان ما كان منذ عهد الطفولة حين كنا ننام على حجور الجدات ونحلم أحلام الربيع ..التي ذهبت ولن تعود.. يقول:

يا ربيع الطفولة لا تحتضر
ادن مني قليلا ، أناشدك الله ادن

لكن الحلم ذهب ولن يعود وأفقنا وأفاق الشاعر على الواقع المرير، واقع يحول المنى والأماني والأمنيات .. والأغنيات إلى سراب ومنون وموات ..وتتخذل تلك الرؤى ..وتذبل زهور شجر الزيزفون وتتقلع شجرة الصفصاف من أصلها .. وتصفر عيدان السمرات وينخذل الشاعر..

إنّ تكرار الشاعر لعبارة (كان لي وطن) على مسافات متقاربة في هذه المقطوعة يعبر عن تلك الانفعالات الحادة التي تجعل المتلقي يحس بتلك المرارة.. وهذا لما آل إليه وطنه من تمزق الأوصال، وتشتت وتقاتل أبنائه.. فاستدعى الماضي المشرق لوطنه ليكون عزاءه الأوحد لهذا الحاضر البائس.

يتقمص شاعرنا شخصية الواعظ (مالك بن دينار)، يخطب ومصحفه في يده. ويحمل استحضار الشاعر لحادثة سرقة المصحف دلالات

عدة: حالة الاستلاب واليأس الذي يحسه، الوطن الذي ضيعه أبناءه، صوت الحقيقة المضطهد،. .

أخطب الآن فيكم،

وذا وطني مصحف في يدي . .

"**مالك إبن دينار**" **يسكن صوتي**

(.....)

آه يا أسفي!

ضاع مني الذي كنت أحمله فجأة[33]

لقد سرق منه مصحفه / الوطن، وهولا يهتدي إلى سارقه. وهنا يرجع شاعرنا مرة أخرى لينهل من القصص القرآني فيستحضر قوم موسى وحادثة إخفائهم أمر القتيل، فيتساءل إن كان في الإمكان أن يذبح صفراء فاقعة لمعرفة الحقيقة ؛حقيقة ما آلت إليه البلاد والعباد، فتتواتر الأسئلة تباعا أسئلة تسكن كل فكر: كيف العودة إلى سبيل الرشاد بعد التيه ؟ أبالعفو؟ أم بالنسيان ؟ أم بالندم ؟

✓ **<u>الاغتراب الاجتماعي و النفسي:</u>**

إن المتأمل في الّنفس البشرية ليقف عاجزاً أمام هذا المحيط الزاخر بالّتقلبات المزاجية، فهو بين مد وجزر بين رضا وسخط ،بين حزن وفرح، بين ألم وأمل، بين شك وريبة من جهة وبين طلب للهدوء والسكينة من جهة أخرى ، ومن خلال ما يعبر به الفرد عن نفسه وما يفصح به عن ذاته فيقوم " بالكشف عن معلومات شديدة الخصوصية والحديث عنها لغيره ، وتكون هذه المعلومات متعـلقة بدوافـعه أو برغباته أو بمـخاوفـه وأماله ، أو بما تـكنه نفسه "[34]

وإن صرخة" زهير بن أبى سلمى"، وتعجبه من الذي يعيش تقلبات الدهر كيف لا يسأم!؟ إّنما هي إفصاح عن ما يختلج بنفسه من سأم وتعب:

"**سئِمتُ تَكَالِيف الحياة و من يعش ثَمانين حولاً لاَ أَبا لَك يسأَم** [35]

ومن ثم غياب القيم والإحساس بالغربة عن الذات ويعني هذا المفهوم بصورة عامة كل أشكال القهر، ومشاعر البؤس والشقاء التي يعاني منها الإنسان في الحياة "[36] سواء بالنسبة لغربته عن ذاته (الاغتراب النفسي) أو غربـــته عن الآخر (الاغتراب الاجتماعي)

وقد عاش يوسف وغليسي هذا النوع من الاغتراب في حياته فجاء شعره مجسدا وحاملا لهذه المظاهر الاغترابية يقول:

واقف أستعيد بقايا الجراح"

في خريف الهوى ... عند مفترق الذكريات.

كصفصافة صعرت خدها للرياح"

يزيد اشتعال المدى

وبراكينه ما ارتوت من ينابيع دمعي

من دمي المستباح[37]

فعبارات: خريف الهوى، مفترق الذكريات، الرياح، ذاكرة اليأس، ضمأى،. ..كلها عبارات تحمل في ثناياها بذور اليأس، والمرارة، والحزن. فنحن نعبر بالخريف عن العجز والنهاية، كونه فصل تصل فيه الطبيعة إلى آخر دورتها الكونية.

وخريف الهوى يعني الوصول إلى حد ليس بعده عودة، حد يشكل مفترقا للذكريات كما عبر عنه الشاعر، وهي عبارة تدعم ذينك الرؤية. كون المفترق يشكل النقطة الفاصلة التي يقف عندها الإنسان وقفة اختيار، يكون عليه حينذاك أن يسلك أحد هذه السبل، دون أن يعلم إلى أية نهاية قد يوصله هذا الدرب.

إنه يستعيد في وقوفه ذلك ذاكرة طويلة من الوقوف على الطلل يلعق الشاعر فيها الجراح والآلام آلام الفقد والضياع !! واليأس من الذاهب دون رجعة ..إن الوقوف هيئة متكررة خاصة إذا كان في خريف العمر يصبح الواحد منا كشجرة الصفصاف تضربها الرياح والأعاصير تريد زعزعتها بل اقتلاعها من جذورها..

واقف عند سفح السنين الخوالي وحيدا
تبعثرني الريح شوقا إلى السمرات التي
بايعتني شتاء وصيفا. .
شاخت. . تهاوت. . وماتت. .
ولا شاهد يذكر المرتين[38]

لقد خلق الشاعر لنفسه زمنا خاصا به كسر فيه الزمن الموضوعي للحادثة؛ حين أعاد صياغتها بما يتناسب مع واقعه ويكمله فرسم لنفسه صورة استوحى ملامحها من بيعة النبي (ص) رامزا لها بالسمرة وهي الشجرة التي شهدت البيعة.غير أن سمرة الشاعر تهاوت وماتت، ولم يبق من شاهد عليها إلا تلك الرياح الخريفية التي مابرحت تبعثره حنينا إليها فكلما حاولت اقتلاعه زادته شوقا إلى زمن النبوة.

إن هاته الصفصافة التي تحدت الرياح والعواصف ، وتلك السمرات التي بايعت الشاعر والتي بعثرته الريح شوقا لها هي نفسها الشاعر ومن خلاله الإنسان الذي يضربه تيار التغيير والانتزاع والاقتلاع من الجذور فيصمد مليا ..نفسها سمرات الحي التي تغنى بها امرؤ القيس والتي طالما تألم ونزفت تحتها جراحه في لحظة الفقد وهو يتجرع مرارة الفراق والبين مثله مثل جاني الحنظل

تعاورني اليأس برا وبحرا. .
تدثرت بالأمنيات، ، تزملت بالمعجزات، ،
ولاعاصم من عناء..
كنت وحدي أساهم..وحدي أرد الأعادي
وحين ترديت، كان لي الحوت منفى ومقبرة[39]**. .**

تتضح حالة اليأس والألم النفسي والاجتماعي الذي يعيشه الشاعر ولا عاصم ولا معين يقف معه في هذه المحنة رغم المعجزات و الأمنيات وجد الشاعر نفسه في بطن الحوت مغاضبا[40] و جراء هذا الوضع لا يجد الشاعر إلا الغار[41] ملجأ ومأوى بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، بعد أن خانه الأهل و الأحباب و الأصحاب..

ألجأ الآن وحدي إلى "الغار. ."
لا أهل. .لا صحب..إلا الحمامة والعنكبوت
غربتني الديار التي لا أحب سواه[42]

إنها إشارة إلى أنه مطارد مذموم وقد هجره كل من أحبهم من أهل وخلان، ولم يبق معه إلا الحمامة والعنكبوت.وهو على هذا يشكو الغربة والوحدة، وهجر الأحبة.

✓ **<u>الاغتراب الفكري و الثقافي:</u>**

لقد تجلى اغتراب الشاعر الجزائري في مرحلة التسعينات في أنه أحس أن مكانته تضعضت، وأن الوطن لا يقدره حق قدره، فالمثقف المبدع مهمل و مقهور.. لذا جاءت " القصيدة تترجم خروج الشاعر عن مدار الواقع الذي عكف على اغتيال العقل ، واستباحة الانساني.."[43]

إنّ المثقف الجزائري في هذه الفترة سواء كان طبيبا أو أستاذا أو أديبا أو مهندسا ... نجده أكثر إحساسا بهذا الصراع فمنه من قُتل غدرا ومنه من دفع إلى غربة جسدية وأخرى روحية فكرية داخل الوطن.

ما أغربني في وطن لا يتشبه بالأوطان[44]

فالمثقف خاصة الشاعر الحر الشجاع لا يهاب الصدق و لومة اللائمين يثور على الفساد ويتمرد على كل طاغية ظالم كاذب، فشعره "ثوران الأرواح التي تهيج كالبراكين المضغوط عليها فتنفجر وتقذف بالنار والحمم على رؤوس الضاغطين عليها " [45] لهذا قال:

أنا "غيلان" "–يا ابن عبد الملك"
قد أتيت أعكر لون الخطب ... !
أنا حلاق كل ملوك بلادي ..
⋮
سأفضحكم في الرمال..
سأزرع أسراركم في الترب !
مثقلا بالفظائع ..[46]

فالطاغية يخاف المثقف لأنه يفضحه ولا يسكت عن حق سلب، يحس بأحوال وأحزان الآخرين وكأنها جزء منه لقوله:

حالي أنا ؟!
أحوالهم ؟!
أحوالنا ؟!
⋮
ونظام حكم بلادنا ؟ !!! [47]

لهذا وجدناه في ظل هذه الظروف مستهدفا من أجل إسكاته بدليل قوله:

فلماذا يُضيعني – اليوم – قومي ؟!
لماذا يصادر نوري ؟!
و :متشبثُ بالنور بالشمس المِ صادِرِ دفؤها
و :يسألونك عن عاشق خائب
أنكرته نسا العالمين !
و : القلوب معي ..
والسيوف علي ..!

وأيضا: لماذا يباغتني الغيم
⋮
حين تلوح لي نجمة في سماك ؟ ! [48]

وقد انقسمت قصائد المجموعة إلى شقين مثلها مثل المسرحية الشعرية التي كانت في مشهدين بشخصين هما "النجاشي"، " الأمل وحبل النجاة" و "جعفر" "ذات الشاعر المجروحة والتي تنزف حزنا وألما" فهي كل جزائري –خاصة المثقف– يعيش الغربة في وطنه بحكم الخوف من المجهول.

إنني شاهد القرن،
لكنني لا أرى اليوم شيا ! ..! [49]
أيضا : وأنا أخاف من الظلام[50]

هذا الإحساس بـ "الغربة" والأصح "التغريب" يمثل لحظة البحث والكشف عن التغيير والتجديد وكذا التحول وذلك لرفض ما هو موجود وسائد، مما يدفع إلى القلق والاضطراب الداخلي "النفسي والفكري".

يقول يوسف وغليسي واصفا اغترابه الثقافي في وطن لا يقدر الثقافة والمثقف، في وطن ينصب العداء لكل من يعاديه:

بعد أن ناصبوني العداء
أنكروا أنني أوفدتني السماء شتاء
يعرب وجه النبات
بربروا لغة الطير و الكائنات
نهبوا ملك بلقيس من بعدما
أوقفوا هدهدي..
صادروا مصحفي[51]

وما لغة الطير إلا الآمال العذبة، وما بلقيس إلا الجزائر، وليس المصحف سوى الشعر (لغة

الرفض) – بحكم أنه مثقف – لقد سرى اليأس في نفس الشاعر فأبق إلى الفلك المشحون (القصيدة) يبحث عن عزاء.. و يلتفت عله يجد من يقف بجانبه فلا يجد .. لأن الأعادي أرادوا أن يعزلوه و يرفضوه..

كنت وحدي أساهم... وحدي أراد الأعادي

و حين ترديت كان لي الحوت منفى و مقبرة[52]

لقد سعى حكام وطن الشاعر أن يسكتوه مهما كان الثمن و النتائج، فشكوا في نسبه، وحرفوا دينه و سيجوه بالأراجيفأ و أعدموا تاريخه العتيد:

شوهوا نسبي..

سيجوا بالأراجيف ذاكرتي..

أعدموا شجرة الانتماء..!

عقروا خيل "عقبة "والفاتحين،،

وأحيوا رميم "كسيلة"و"الكاهنة...!"

حين أفصحت عن رغبة في البكاء

نقشوا ل"تهودة" في البال أيقونة،

ثم خروا لها ساجدين، وناموا على طيفها[53]

كل هذا لأن الشاعر أراد البكاء ..أراد الكلام و الكتابة، لكنه قوبل بالرفض و المنع، ليس هذا فحسب بل شوه نسبه و دينه و تاريخه.

يوضح الشاعر في هذا الجزء جملة من القضايا الفكرية الثقافية التي أحس فيها بالاغتراب و المأساة حيث يتجلى جرح الشاعر وألمه في وطنه إنه ألم الانسلاخ عن الأصل حين عقر الكثير منا خيل عقبة بن نافع بل وقتلوا الفاتحين ومنهم عقبة وحرفوا وقائع التاريخ..وحصول الردة إلى زمن الجهل والضعف والتشتت ..فالشاعر يتألم لهذا الواقع الذي أصبح الوطن يعيشه ..

إنها قضية الهوية ففي حين ينادي الشاعر بضرورة التواصل مع البيعة الأولى – الاسلام الحقيقي من المعين – وهوية العروبة – اللغة العربية و الأصل العربي – نجد الكثير ممن ينادي بضرورة الانفصال عنها وبناء ذات أخرى تقدس رموز الكاهنة وكسيلة (رمز الأمازيغ و البربر..) ..فالشاعر يأخذنا هنا إلى زمان الفتح ..العربي الإسلامي وتاريخه.

ويحيل إلى صورة أخرى أقرب لها وهي انحراف إيمان اليهود بالله إلى وثنية جديدة إلى عبادة العجل الذي صنعوه بأيديهم:

نقشوا لـ تهودة في البال أيقونة

ثم خروا لها ساجدين وناموا على طيفها.

وتهودة هي المكان الذي شهد ردة كسيلة ومؤامرة الروم والأمازيغ ضد الفاتحين المسلمين..وهي أيضا المكان الذي يرى المؤخون الفرنسيون أنه مقر الجاليات اليهودية النازحة من بطش نبوخذ نصر عند خراب القدس..

لكنه يواصل تأكيده على أصله و فصله اسلامه و دينه و لغته :

إنني العربي الشهيد الذي لم يمت

في ربيع الغضب

أنكرتني القبيلة حين تلونت بالاخضرار

كفرت بلون اللّهب [54]

في هذه المقطوعة يجيب الشاعر على كل التساؤلات التي يمكن أن تطرح ..في حقيقة من هو إنه يؤكد على بربريته لكنه لا يقبل أن يعبد الكاهنة أو كسيلة ..مثلما عبد اليهود العجل .. الشيء الوحيد المتغير فيه عن البقية أنه يهوى صهيل الخيول ...ويراوده طيف **عقبة** أحيانا

فيذكره بزمان البيعة .. إنه امتزاج الشرق بالغرب يتجلى في روح الشاعر المتجلي نبيا.

3. مقاومة الاغتراب :

رأينا فيما سبق كل تلك المظاهر و التجليات الاغترابية التي سبغت حياة الشاعر .. السؤال الذي يطرح نفسه هنا.. هل استسلم الشاعر لهذا القلق و الاضطراب أم قاوم و كانت له رؤية استشرافية تبشر بالخير و بزوال هذا الانكسار، و الاستلاب..

لقد أوجد الشاعر يوسف وغليسي لنفسه فضاء و مساحة بث فيها ذاته وآماله، فهي حيز التعبير عن الإنسانية والوطنية التي يسعى دوما إلى تحقيقهما وغرسهما في نفوس الناس، فنبرة التصميم والإصرار على التغيير والتجديد وجدناه جلية في أسطر تقريبا كل القصائد دليل على رفض الوضع الراهن و"الرفض أو الهدم هو لحظة بناء جديد "[55]

حيث يقول :

ما ينبغي أن أموت !

سأعود غداة تزلزل تلك الممالك زلزالها

و هو تصميم و تحدي

"و جبال الزبربر" تخرج أثقالها !

التصميم

ويعود الحمام إلى شرفات البيوت 2 ...!

و :. **إني رأيت بموطن ملكين اقام**

بعد طول تنـازع فتحـاورا

ملكين يروى أن هذا قد "تأبط

"شره ، لكن ذا"ك "تشنفرا

وتبـادلا علم البلاد وأعلنـا

حكما يكون تداولا وتشــاور

كل الحروف تعربت فتلألأت

وتلون الوطن المكحل أخضرا [56]

إن الشاعر هو الكاشف والمنير للدروب، يحمل رسالة طاهرة فيها الخير والسلام لأبناء مجتمعه، ملونة بالأخضر يقول:

يسألونك .. قل إنني نخلة

تتحدى الرياح وقيظ السنين .! [57]

نجد هذا التصميم المقترن بالأصالة و التشبث بالجذور الضاربة في التاريخ يُذكر به تقريبا في كل قصيدة فلقد شبه الشاعر نفسه بالنخلة، ليضعنا أمام صورة واضحة و ماثلة للعيان و لإدراكنا بإصرارها على الحياة والصمود و التغلب على الظروف الصعبة.

أما في قوله :

الليل يسكن مقلتيك حبيبتي

وأنا أخاف من الظلام !يوسف وغليسي[58]

وكذلك

: لماذا يباغتني الغيم

حين تلوح لي نجمة في سماك ؟ ! [59]

وقد قال:

لابد من وطني..

وإن طال السفر. ! " [60]

فهو يصمم ويؤكد على أن هذا التغريب و الاغتراب لن يدوم طويلا وسيأتي يوما وتُنار أرض هذا الوطن الأخضر، حيث يقفز برؤيته الشعرية إلى استشراف على أن سلام ووئام سيحل بأرضه الطيبة هذا بدافع نواياه الخيرية الباحثة عن الاستقرار للكل، والدليل على ذلك آخر قصيدة في المجموعة جاءت بعنوان "سلام" فسلام لكل بشر في هذه الأرض النقية بدماء الشهداء

الخاتمة:

تتناول هذه الدراسة تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي، حيث شكلت هذه الظاهرة ميزة غلبت على معظم قصائده المنتجة مع تنوع في التجربة والتوظيف ، كما كانت دافعا نفسيا فريدا وسم الإنتاج الشعري الجزائري الذي كان زاخرا بالتجارب الذوقية والروحية السامية ومتميزا بالطابع الجزائري الخاص، فقد كان للوقائع التاريخية والسياسية أثر بارز في تشكيل هذه الظاهرة.

إنَّ الشاعر "يوسف وغليسي" قد عانى من تجليات لاغترابات نفسية واجتماعية تولدت لأن الشاعر عاش من أجل هذا الوطن و عانى ما يعانيه من ظروف كالحة و سوداء..و كما اغترب هو نفسيا و ثقافيا اغترب وطنه..

و من خلال الدراسة تبين أن خطابه الاغترابي أخذ منحى تصاعديا؛ فرغم سواد واقعه "وطنه" وجدناه حالما متمنيا السلام والاخضرار لهذا الوطن ليرتقي بهذا الحلم إلى سماء الله بنبوته، فتمثل في شخص سيدنا عيسى – عليه السلام – الذي رفعه الله ليحقق خيرا وسلاما في المستقبل، فهو الحلاج الهائم والضائع في ملكوت الوطن حيث لا نجد في قلبه إلا الوطن وحب الوطن.

المراجع والاحالات:

[1] مجلة كل العرب، باريس، العدد السابع، تشرين اول، 1982.

[2] محمد نجيب التلاوي، القصيدة التشكيلية في الشعر العربي، الهيئة المصرية للكتاب، 2006، ص 2

[3] أحمد يوسف، يتم النص والجنيالوجيا الضائعة، منشورات الاختلاف، المغرب، ، 2002، ط1، ص 26

[4] محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1979، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2001 ط2، ص 127.

[5] محمد بنيس، كتابة المحو، دار توبقال، الدار البيضاء، ، 1994، ط1، ص 53.

[6] أحمد يوسف، يتم النص والجنيالوجيا الضائعة ، ص 363.

[7] عبد القادر عبو، فلسفة الجمال في فضاء الشعرية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007، ص 127.

[8] محمد بنيس، كتابة المحو، ص 161

[9] كمال فنيش، البناء الفني في الشعر الجزائري المعاصر، ، رسالة ماجستير (مخطوط)، جامعة قسنطينة، 2000، ص 76.

[10] أحمد شنة، الديوان، من القصيدة إلى المسدس، مؤسسة هذيل، الجزائر، ، 2000، ط1، ص07.

[11] كمال فنيش، البناء الفني في الشعر الجزائري المعاصر، ص 7.

[12] الأزهر عطية، ديوان: السفر إلى القلب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 35.

[13] أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر، مج 10، ع 10، 1979، 5.

[14] عبد المنعم حنفي، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، دت، ط1 ص515.

[15] شاخت، الاغتراب، ترجمة: كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات العليا، بيروت ، ط1979،1،ص52.

[16] المرجع نفسه، ص 303.

[17] عمر الطالب، القلق والاغتراب في الشعر الجاهلي، دار عكاظ، المغرب، 1988، ص229.

[18] الفراهيدي، كتاب العين، ، تحقيق: د. مهدي المخزومي،د. إبراهيم السامرائي 41/4.

[19] ينظر: الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 191/1، وينظر: سنن النسائي الكبرى للنسائي 257/4.

[20] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة غرب، تاج العروس، الزبيدي، مادة غرب.

[21] ينظر: أحمد محمد الجرموزي، الاغتراب وعلاقته ببعض متغيرات الصحة النفسية، (أطروحة دكتوراه) ص25.

[22] ينظر: قيس النوري، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً (بحث) ص4.

[23] أحمد علي ابراهيم الفلاحي، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري –دراسة اجتماعية نفسية، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص: 08.

[24] ينظر: عبد القادر موسى حمادي المحمدي، الاغتراب في تراث صوفية الإسلام (أطروحة دكتوراه) ، ص16.

[25] ينظر: حافظ الشمري، الغربة والاغتراب في شعر نازك الملائكة، (بحث) م كلية الآداب، ص131.

[26] علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، عالم الفكر، العدد الثاني، أكتوبر، ديسمبر، 1998، ص: 47.

[27] سعيد يقطين، الرواية و التراث السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ، 1992، ط1، ص .50

[28] : www . belaudood .com

[29] محمد لطفي اليوسفي، لحظة المكاشفة الشعرية " إطلالة على مدى الرعب "، سراس للنشر، تونس 1998، ص 210

[30] يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، دار بهاء الدين، قسنطينة، 2003، ط2، ، ص 72

[31]المصدر نفسه، ص27–28.

[32] المصدر نفسه، ص 35–36

[33] المصدر نفسه، ص.23/24

[34] طه عبد القادر فرج ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ص113 .

[35] زهير بن أبي سلمى، الديوان ،دار صادر ،بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت، ص86.

[36] علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية ، بحث في إشكالية القمع التربوي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الثاني، أكتوبر – ديسمبر 1991 ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون و الأدب – دولة الكويت، ص2 .

[37] يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، ص14.

[38] المصدر نفسه، ص15

[39] المصدر نفسه، ص22.

[40] بطن الحوت هنا: يمكن أن يكون السجن الحقيقي: وقد يصدق على بعض الشعراء الذين زج بهم في السجون .و معنوي: ويحدث نتيجة الوحدة والإغراق في النظر إلى جراحات النفس وآلامها دون الالتفات إلى المستقبل.

[41] تناص و استرجاع لما جرى مع الرسول الكريم " محمد " صلى الله عليه و سلم مع قريش في دعوته لهم.

[42] –يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، ص.29

[43]أسيمة درويش، مسار التحولات، قراءة في شعر أدونيس، دارالآداب بيروت، ،1992، ط2، ص84.

[44] يوسف وغليسي :م ن، "غربة"، ص.66

[45] داود سلوم، أثر الفكر الغربي في الشاعر جميل صدقي الزهاوي، ص.138

[46] يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار ، "تجليات نبي سقط من الموت س‌هوا"، ص2

[47] المصدر نفسه، ص36

[48] وسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، (شعر) " .تجليات نبي سقط من الموت سهوا"، ص ص 27،" ..28

تغريبة جعفر الطيار"، ص.34 .

" يسألونك"، ص.56 " .

مذكرة شاهد القرن"، ص.68 " .

غيم"، ص64

[49] يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، "مذكرة شاهد القرن"ن ص68

[50] المصدر نفسه"، ص 60

[51] المصدر نفسه، ص21.

[52] المصدر نفسه، ص22.

[53] المصدر نفسه، ص20.

[54] يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، ص 23

[55] محمد كعوان، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل، ص2

[56] يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، ص47.

[57] المصدر نفسه، ص57.

[58] المصدر نفسه، ص60.

[59] المصدر نفسه، ص76.

[60] المصدر نفسه، ص67.